الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة

الإنسان والعمل والقيم والفنّ في فكر محمد عزيز الحبابي

Personalist Philosophy and the Reform of Civilization: Man, Work, Values, and Art in the Thought of Mohammed Aziz Lahbabi

د. عبد الكريم الشريعة

جامعة محمد الأول

المغرب

abdelkarimchriaa@gmail.com

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة
الإنسان والعمل والقيم والفنّفي فكر محمد عزيز الحبابي

د. عبد الكريم الشريعة

ملخّص:

يناقش هذا المقال أزمة القيم في الحضارة الإنسانية المعاصرة في ظل هيمنة التقدّم العلمي والتقني، مقابل تراجع البعد الإنساني والأخلاقي، حيث غدت الحداثة في كثير من مظاهرها منفصلة عن القيم التي تمنح الإنسان كرامته ومعناه. ويطرح المقال إشكالية مفادها: هل أفرزت الحداثة حضارة متقدمة تقنياً ومفلسة قيميًّا؟ وإن كان الأمر كذلك، فما السبيل إلى إصلاح هذا الاختلال الحضاري؟

ينطلق المقال من فرضية أساسية مفادها أن أزمة الحضارة المعاصرة ليست أزمة علم أو تقنية، بل أزمة إنسان وقيم، نتجت عن القطيعة بين التقدم الماديّ والمسؤولية الأخلاقية. ويهدف إلى إبراز ملامح المشروع الإصلاحي للفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي، الذي يقترح، من خلال الفلسفة الشّخصانيّة، إعادة بناء الحضارة على أساس تشخصنيٍّ، يجعل من الإنسان غاية لا وسيلة، ويعيد الاعتبار للعمل، والثقافة، والفن، بوصفها مجالات لتحقيق إنسانية الإنسان لا لتحويله إلى شيء.

الكلمات المفاتيح: الحضارة الإنسانية - محمد عزيز الحبابي - الحداثة - الفلسفة الشّخصانيّة - الإصلاح - التقنية.

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

1- تمهيد:

تشهد الحضارة الإنسانية في عصرنا الراهن مرحلة مفصلية، تتقاطع فيها مظاهر التقدم المادي الهائل مع تراجع مقلق في منظومات القيم التي قامت عليها الحضارات عبر التاريخ. فرغم اتساع آفاق المعرفة العلمية والتكنولوجية، يبدو العالم أكثر هشاشة أخلاقيًا وروحيًا، إذ تتآكل روابط التضامن، وتتنامى الفردانية المفرطة، وتتراجع مكانة الإنسان لصالح منطق السوق، والقوة، والمصلحة الذاتية. في هذا السياقِ المعقدِ يُطرح السؤال المحوري نَفْسُهُ بإلحاح: هل وصلت الحضارةُ الإنسانيةُ إلى حالةٍ من الإفلاس القيميّ؟ وإذا كان الجواب بالإيجابِ، فما السبل الممكنةُ لإصلاح هذا الخلل الحضاريّ؟.

يقدّم الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي[1]، مؤسس الفلسفة الشّخصانيّة في الوطن العربي، رؤيةً إصلاحيةً رصينةً لمعضلةِ القيمِ التي تواجهها الحضارة الصّناعية المعاصرة، رؤيةً تهدف إلى إعادة الاعتبار للإنسان في شموليته: كائنًا ماديًا وروحيًا، فردًا كان أو مجتمعًا. ومن خلال مشروعه الشخصاني، يقترح الحبابي نهجًا فلسفيًا أخلاقيًا لإصلاح الحضارة، يقوم على إعادة بناء الإنسان وتأسيس حضارة تكون فيها مفاهيم: الاحترام، والكرامة، والاعتراف المتبادل، والانفتاح، أسسًا للعيش المشترك والتقدم الحقيقي. كما يحدّد الحبابي أسباب الأزمة وعوامل تعثر الحضارة الإنسانية، ويقترح وسائل عمليةً لإعادة إحياء البعد الإنساني في المجتمع، بما يمكّنه من استعادة قدراته على التَّأَنْسُنِ والعيش وفق قيمٍ ومبادئَ تحترم الإنسان في جوهره.

2- الانحطاط الحضاريُّ لدى الإنسان، ما هو طريق الإصلاح؟

يُعدّ التساؤل حول الانحطاط الحضاري من الإشكالات الفلسفية التي استأثرت باهتمام الفكر الإنساني قديمًا وحديثًا، لما ينطوي عليه من أبعاد تمسّ ماهية الإنسان ووظيفته في العالم، وحدود علاقته بما ينتجه من نظم معرفية وتقنية واقتصادية. فالحضارة ليست مجرد تراكم مادي أو توسّع عمراني، بل هي بنية مركبة تتداخل فيها القيم والمعايير والتمثلات الرمزية والاختيارات الأخلاقية التي تحدد وجهة الفعل الإنساني ومعناه. ومن ثمّ، فإن الحديث عن إفلاس الحضارة لا يُفهم بوصفه حكمًا انطباعيًا أو موقفًا تشاؤميًا، بل باعتباره تشخيصًا نقديًا لوضع تاريخي بلغ فيه التقدم المادي درجة غير مسبوقة، مقابل تراجع ملحوظ في مركزية الإنسان كقيمة وغاية. وتنبثق أهمية هذا الإشكال من كونه يفرض إعادة النظر في المسلّمات التي تأسست عليها الحداثة التقنية، وفي التصورات التي جعلت من النمو الاقتصادي والقوة الإنتاجية معيارا لتقويم المجتمعات، متغافلة الأبعاد الروحية والإنسانية التي تمنح الحضارة معناها الحقّ.

في هذا الأفق النظري، يبرز الطرح الشخصاني لمحمد عزيز الحبابي بوصفه أفقًا فلسفيًا يسعى إلى تجاوز النزعات الاختزالية التي جزّأت الإنسان إلى بعد مادي وبعد روحي، وأخضعت وجوده لمنطق الأداتية والمنفعة، إذ يؤكد هذا الطرح الفلسفي الشخصانيّ، أن أزمة الحضارة المعاصرة ليست أزمة علم أو تقنية في ذاتها، بل

1- محمد عزيز الحبابي مفكر وفيلسوف وأديب وشاعر مغربي. (ولد في 25 كانون الأول/ديسمبر 1922م، وتوفي سنة 1993) في مدينة فاس المغربية، وهي موطن جامعة القرويين الشهيرة.

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

شهد العالم الإسلامي، في مختلف العصور، مصلحين قاموا بمحاولات، طورا موفقة، وتارة فاشلة، لمعالجة أزمة الحيرة والجمود."[1]

ولتجاوز هذه الأزمة الحضارية، يدعو محمد عزيز الحبابي إلى تبنّي التربية بمعناها الواسع والشامل، تربية لا تقتصر على التكوين التقني أو المعرفي، بل تروم إلى أنْسَنَة علاقة الإنسان بالعالم، وإعادة توجيهها على أسس قوامها المسؤولية والكرامة. وفي هذا الأفق، يتجه المشروع الحضاري المنشود، نحو بناء حضارة يكون العمل فيها قيمة إنسانية مركزية، ويتم فيها توظيف التقنية والعلم توظيفًا إيجابيًا وسليمًا، باعتبارهما وسيلتين في خدمة الشخص لا أدوات لتشييئه. ومن ثمّ، تؤكد الفلسفة الشّخصانيّة إيمانها بقدرات الإنسان، وإمكاناته على درء المخاطر التي تهدّد كيانه، شريطة أن يظل فاعلًا أخلاقيًا واعيًا بتبعات أفعاله وممارساته.

3- القيم الإنسانية في ثقافات الشعوب:

ينطلق محمد عزيز الحبابي من اعتبار أنّ وحدة الجنس البشري حقيقة علمية، وواقعة تاريخية، يستحيل دحضها، وأن البيئة والمناخ، هما المجالان اللذان تتفاعل فيهما الأفراد والجماعات، وتتأثر بهما، والعرق البشري حصيلة ناجمة عن مجموع تلك التأثيرات المتراكمة على مر القرون، كما أن ردّ الفعل الإنساني (كالإرادة المكافحة، العقل المبدع،...) له تأثيره، فالحضارة تَكتسب مفعولها باستنادها على حياة مبنيّة على علاقة وثيقة بين تداخل الآفاق وبين النشاط الشخصي والمجتمعي، وما يعاب على الحضارة اليوم، أنها أصبحت مستعبدة من الإنتاج والدخل، قوامها الاتجار والمزاحمة.

من الخطأ أن ننسب الحضارة الإنسانية إلى ثقافة قومية بعينها، أو اعتبار ثقافة ما، هي المركز في البناء الحضاري العام للأمم والشعوب، فالناظر إلى تاريخ الحضارة الإنسانية، يجد أن الأمم الراقية (المتمدنة) سجّلت أعمالا شنيعة في حق الإنسانية. إنّ البدائية موجودة في أعماق الوجدان البشري، لكن هذا ليس مبررا للعمل على إفساد الحضارة الإنسانية، بل الواجب العمل على تهذيب الإنسان وتثقيفه، لما لهذا الأخير من قابلية للتربية، وتوسيع مداركه الإنسانية. لقد عرّف فلاسفة اليونان الإنسان: بالحيوان الناطق، "إن الإنسان بنطقه (بتفكيره) يقيم الحضارات المادية وينشئ الثقافات الروحية. وتلك هي قيمته في التاريخ وفي الحياة الإنسانية"[2].

يؤكد محمد عزيز الحبابي في هذا السياق على: "أن وحدة الجنس حقيقة علمية، واقعية، ثابتة، يستحيل دحضها، انطلاقا من هذا المقياس، يقوم كل مذهب أخلاقي، سواء كان دينيا أم لادينيا، وكذلك جميع المذاهب الفلسفية القومية. فالفروق بين الأجناس لا وجود لها سوى في أساليب المعيشة، مع العلم بأن هذه

1- محمد عزيز الحبابي، من المنغلق إلى المنفتح: عشرون حديثاً في الثقافات القومية والحضارة الإنسانية، ترجمه عن الفرنسية: محمد برادة، مكتبة الأنجلو مصرية، الطبعة الثانية: 1973، ص67.

2- عمر فروخ، الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها، دار لبنان للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الثانية:1980، ص07.

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

الإنسان شخصًا كونيًا، تتحدّد قيمته بإنسانيّته، لا بانتماءاته العرضية، وبقدرته على الانفتاح والتعايش، لا على الإقصاء والهيمنة. أما (إيمانويل مونيي) فيعتبر أن الحركة العميقة للوجود الإنساني، لا تتمثل في "الطبيعة المطلقة أو الأفكار المطلقة من عمومية مجردة، وإنما في تبديل ((قلب قلبه))، لكي ندخل فيه ملكوتا وضّاء، ونجعله يشع على العالم"[1].

2-3- الكرامة الإنسانية كقيمة عليا في تاريخ الشعوب:

ينطلق محمد عزيز الحبابي من اعتبار أن استعمار الشعوب، فعل سلبي في جوهره، لأنه لا يعرقل فقط تطوّر ثقافة الشعوب المستعمَرة، بل يؤدي في حالات كثيرة إلى اجتثاثها من جذورها، كما حدث مع الهنود الحمر الذين تعرضت ثقافتهم للإبادة والتهميش. ويرى الحبابي أن خطورة الاستعمار، تكمن أساسا في تفكيك شخصيّة السكان الأصليين، وهو ما يفضي إلى سلب الإنسان وعيه بذاته، مادامت الثقافة فعالية إنسانية، تصدر عن هذا الوعي بالذات. فالثقافة، في نظره، لا تنفصل عن العمل، بوصفه فعلا إنسانيا ملتحما بالطبيعة الإنسانية، ومعبّرا عن حرية الإنسان وفاعليّته. كما يدحض الحبابي التبرير الذي يقدمه الغربيون للاستعمار، بدعوى أنهم شعوب متحضّرة تسعى إلى نقل الحضارة إلى غيرها، مؤكّدا أن التاريخ، عبر مختلف عصوره، يبرهن على زيف هذا الادعاء، إذْ كان الاستعمار في جوهره أداة للهيمنة والاستغلال، لا وسيلة للتحضر وارتقاء الإنسانية، ومنه ينتهي إلى استنتاج في الجانب المتعلق بمسألة تعدد الثقافات مفاده: "أنه ليس هناك سوى طبيعة إنسانيّة واحدة، أما الاختلافات فمنشؤها أوضاع الحياة التي تتغيّر من مجتمع لآخر[2]".

يسوق الحبابي في سياق حديثه عن تآمر المستعمِر على الثقافات الأهليّة، لا عبر نهب خيراتها المادية فحسب، بل كذلك عبر انتهاك كرامة السكان الأصليين. ويؤدّي هذا الاستعمار الثقافي، إلى تشويه مسار تطوّر الثقافة الأهليّة، وتحويلها إلى ثقافة مزيَّفة ومنحطة، بما يفضي إلى انحلال الشخصية الفردية والتنكر لهوية الشعب، ومقومات ثقافته. ويُعدّ هذا التوجه الاستعماري، خطرا على مصير الإنسان بوصفه إنسانا، وهي النتيجة المأساوية التي آلت إليها حال الشعوب المستعمَرة.

للخروج من هذا المأزق،يقترح محمد عزيز الحبابي، قائلا: "لكي تحصل الأَنْسَة يجب أن يكون هناك اتصال للعقول الإنسانية، فالإنسان المتمدن هنا، هو من يسيطر وعيه على طبيعته وعلى أهوائه، ويجعل من الكرامة الإنسانية في كل امتدادها قيمة عليا لا تستلب"[3].

ينطلق الحبابي من دحض فكرة مركزية العقل الغربي التي تقوم على أن الحضارة الإنسانية (الكونية) قامت على أساس على هذا العقل، ليخلص إلى أن التقدم الحضاري غير مرتبط بجهود شعب واحد من الشعوب، بل هو نتيجة للجهود التي بذلتها الإنسانية جمعاء على مر التاريخ.

1- إيمانويل مونيي، هذه هي الشخصانية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، ص14.
2- محمد عزي الحبابي ز، مرجع سابق، ص180.
3- محمد عزيز الحبابي، مرجع سابق، ص196.

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

وإذا نظرنا في الدين الإسلامي ذاته، وجدناه يحضّ على استعمال العقل في غير ما آية من آيات القرآن الكريم، ويدعو إلى استنباط المعلوم من المجهول، وإلى إعمال القياس العقليّ في فهم الظواهر والأشياء، بما يدل على مركزية العقل في التصور الإسلاميّ للمعرفة.

سعى الحبابي إلى دحض جملة من الآراء الغربية التي تنكر وجود ثقافة إسلاميّة أصيلة أو تقلل من قيمتها، ومن ذلك، رأي المفكر البريطاني (جيب) الذي يرى أن الفكر الإسلاميّ، لا يجيد سوى عمليات التّحليل كما أسلفنا، وقد ردّ الحبابي على هذا الزعم بالقول، إن التّحليل يفضي بالضرورة إلى الاستقراء، وهو عمليّة معرفيّة تتعارض جذريًا مع النزعة الذرّية، التي نسبها (جيب) إلى الفكر الإسلامي. وفي هذا السياق، يسوق الحبابي أمثلة متعددة، تسفّه الادعاء القائل بعجز المسلمين عن التركيب، ولعل أبرزها اكتشاف (ابن النفيس) للدورة الدموية، وهو إنجاز علمي يفترض بالضرورة، إدراك العلاقات النسقية بين المعطيات، والقدرة على تنظيمها وتركيبها ضمن نسق معرفي متكامل.

صحيح أن الذّهنيّات تختلف من شعب إلى آخر، غير أنه لا يمكن إثبات أن هذه الاختلافات ذات طابع جوهري أو أصيل، بل هي اختلافات في الدرجة والمستوى، لا في الطبيعة والماهيّة. ومن ثم، يدعو الحبابي إلى التخلي عن الأفكار المسبقة، وعن إصدار الأحكام دون معرفة علميّة دقيقة، وإلى فتح الأفق على المطامح الإنسانيّة المشتركة بين جميع البشر، بصرف النظر عن لون البشرة، أو الجنس، أو اللغة، أو مستوى التطور التقنيّ والصناعيّ.

3-4- الفن كقيمة ترمي إلى السمو بالإنسانية:

يميز محمد عزيز الحبابي بين ثلاثة أشكال من الثقافة:

أولا: ثقافة ينتج عنها شعور قَلِقٌ بعدم التكيف والعبث والدوار، يحس معه المثقف بعزلة تامة عن زمانه ومصيره، إنها تمثل الفاعليات، وتعطل سير الحياة .

ثانيا: ثقافة تغذي اتجاها فكريا أرستقراطيا، يجعل المثقّف يؤمن بأن للفكر الأسبقية في كلّ شيء، لذا يرغمه على أن يعترف بذلك الجاه والسمو.

ثالثا: الثّقافة باعتبارها منبعا لالتزام واضح ومتحمّس واع؛ أي ثقافة مكافحة، والثّقافة الحقّة؛ هي الثّقافة المناضلة، وعمل المثقّف: البحث عن الجيد والجديد الرامي إلى أنسنة العالم لصالح مجموع الإنسانية .

في هذا إطار هذا التحليل، يتناول الحبابي مجمل النشاطات الإنسانية الفنية، فيرى أنه بواسطة الفن نَدْخُل في تواصل مع الكون ونَطْبعه بطابع إنساني، فالروائع الفنية الموروثة، تدعم المواهب، وتزكي فطريتها ونوعيتها، وتخلد الأسس التي شُيِّدت عليها الثقافات الماضية الغابرة، وحضور الماضي يربط بين الحقب المتلاحقة التي قطعتها الإنسانيّة؛ "فالفن الحق يتجاوز الارتجافات والاندفاع الانفعالي، والإدراكات الفردية المحضة، لأن الفن إذا لم يؤد رسالة إنسانية شاملة، يغدو مجرد ألعاب وتفجير لكبت مصطنع. الرسالة

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

الفلسفة الشّخصانيّة وإصلاح الحضارة ـــــــ